

وقفه مع آيات تحويل القبلة



الاثنين 6 مارس 2023 07:20 م

بقلم : حسام العيسوي إبراهيم

القرآن الكريم هو نعمة الله الخالدة لهذه الأمة المحمدية ، من تمسك به هُدي إلى صراط مستقيم ، ومن تركه ضل في الدنيا وكان من الخاسرين في الآخرة ، وإذا أردنا أن نقف مع حادثة من حوادث التاريخ فلن نجد مثل آيات القرآن الكريم تتحدث عن هذه الحادثة ، تُذكّرنا بالدروس والعبر ، هذه العبر المتجددة عبر التاريخ ، وهذا هو إعجاز كلام الله تبارك وتعالى ، وحادثة تحويل القبلة من الأحداث العظيمة في تاريخ الأمة المحمدية ، فكيف تحدث القرآن عن هذه الحادثة ؟ وما هي الدروس والعبر التي نستفيدها من هذه الحادثة المباركة ؟ حادثة تحويل القبلة تمت في العام الثاني من الهجرة ، وكان لهذا التحويل أثره الكبير في المجتمع المسلم ، وأهم آثاره والدروس المستفادة منه :

1- أن نتجنب ثلوث العداوة .

هذا الثلوث ذكره ربنا سبحانه وتعالى في بداية حديثه عن هذه الحادثة فقال تعالى : " سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها " [جزء من الآية 142 من سورة البقرة]

فالشيطان يوحى إلى أوليائه من اليهود والمنافقين لِيُزَيِّكُوا صفوف المسلمين ، ويثيروا الشك والريبة في المجتمع المسلم ، وهذا ما تم بالفعل ، وثار ضجة في المدينة ، أقام اليهود الدنيا ولم يقعدوها : إن محمداً له كل يوم رأي ، وكل يوم قبلة ، كيف اتجه إلى الكعبة وكان من قبل يتجه إلى بيت المقدس ؟ إن كان ما مضى باطلاً فإن صلاة من صلى قبل ذلك ضائعة ، وإن كان حقاً فكيف عُبِّرَ هذا الحق اليوم ؟ ونزل القرآن الكريم يرد على هؤلاء ، نزلت آيات كثيرة تمهد لهذا الأمر ، وتقرر أولاً حق الله في نسخ ما يشاء من الأحكام والآيات ، كما قال تعالى " ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير " [البقرة : 106] ، ثم من ناحية أخرى حملت على هؤلاء السفهاء الذين ينتهزون أي فرصة لإثارة الشبهات واختلاق الأقاويل بلا علم ولا بينة ، وردت عليهم فأحمتهم ، قال تعالى : " سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم " [البقرة : 142] ، المشرق والمغرب لله .. الجهات كلها تستوي صخرة بيت المقدس أو الكعبة في مكة ، كلها لله عز وجل ، الله الذي يخصص وبأمر ، وإلا فالجهات مستوية ، كما قال تعالى في نفس السورة : " ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله " [البقرة : 115] ، فهو سبحانه وتعالى من حقه أن يخصص الجهة التي يريد بها ويحبها لخلق " يهدي من يشاء إلى

صراطٍ مستقيم " [البقرة : 142] ، وقد هدى هذه الأمة إلى أحسن الجهات ، اختار لها أفضل الأماكن ... أول بيت وضع للناس ليتجهوا إليه ، وليكونوا متعلقين بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، وليجدوا ملته في التوحيد ومحاربة الأوثان والأصنام ، فهل تعلم الأمة أعداءها ؟ وهل تتعرف على وسائلهم وطرقهم ؟!

2- وسطية هذه الأمة .

فهي أمة وسط في كل شيء ، قال تعالى : " وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً " [البقرة : 143] ، فهم وسط في كل شيء : في الاعتقاد ، وفي التعبد ، وفي الأخلاق ، وفي السلوك ، وفي التشريع ، حتى القبلة يقول عنها العلماء والباحثون اليوم : إن الكعبة البيت الحرام تعتبر وسط العالم ، وسط الدائرة ، مركز الدائرة ، سره العالم ، هكذا أثبت الأستاذ حسين كمال الدين .

وهذه الوسطية ذكرها المولى تبارك وتعالى في آيات كثيرة فقال تعالى : " وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير " [الحج : 78] ، فهل تتعلم الأمة هذه الوسطية في أخلاقها ، وفي تعليمها ، وفي تفكيرها ؟!

3- الإبتلاء ضرورة لا مناص عنها .

وهكذا تعلمنا من هذه الآيات ، أن الله يختبر الأمة الإسلامية ، على مستوى الأفراد ، بل على مستوى الجماعات ، الكل يختبر ، وذلك من أجل التمحيص والاختيار ، قال تعالى : " ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين " [آل عمران : 141] ، " أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم " [البقرة : 214] " أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين " [آل عمران : 142] ، وفي هذه الآيات يحدثنا الله عزوجل عن اختياره للمؤمنين في حادثة تحويل القبلة فيقول : " لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه " [البقرة : 143] ، لابد من امتحان كما حدث في الإسراء والمعراج ، لابد من تنقية الصف قبل مرحلة الجهاد المقبلة التي يواجه المسلمون فيها أعداداً كثيراً : الجبهة الوثنية ، والجبهة اليهودية ، والجبهة النصرانية ، والجبهة المجوسية ، وجبهة المنافقين ، لابد من صف مؤمن متماسك كالبنيان المرصوص ، فلابد من امتحان يميز الله فيه الخبيث من الطيب ، المؤمن يقول : سمعنا وأطعنا ، والمذنب ينقلب على عقبيه لأدنى شيء ، فهذا لا خير فيه " وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله " [البقرة : 143] كان هذا التحويل شاقاً بما صحبه من تهاويل ، ولكن الذين هداهم الله للإيمان استقبلوه بنفوسٍ مطمئنة ، وعرفوا أن هذا من حق الله تبارك وتعالى .

4- لكل مجتهد نصيب .

فما كان الله ليضيع عمل عامل ، وما كان لله أن يبخس حق مجتهد ، ولذلك قال تعالى : " وما كان الله ليضيع إيمانكم " [البقرة : 143] ، فالذين صلوا قبل ذلك نحو بيت المقدس لم تضيع صلاتهم ، صلاتهم كانت صحيحة في وقتها ، ولو صلوا بعد ذلك إلى بيت المقدس لبطلت صلاتهم ، لأن كل حكم صحيح في وقته ، فإذا نسخ لا يجوز أن يعمل به .

فهل تعي ذلك الأمة ؟ فتعلم أنه لا سبيل لنهضتها إلا بالعمل ، ولا سبيل لخروجها مما هي فيه إلا بالاجتهاد والتضحية ، وما أعجب ما قاله ابن تيمية ! إن الله لينصر الأمة الكافرة لو كانت عادلة ، وبهزم الأمة المسلمة لو كانت ظالمة .

5- صدق التوجه هو المقصود .

البر الحقيقي هو بر العقيدة وبر الخلق وبر السلوك ، ولهذا ردَّ على اليهود الذين يقفون عند الرسوم والشكليات بقوله " ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین وأتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون " [البقرة : 177] نسأل الله عزوجل أن يرزقنا بر العقيدة ، وبر العبادة ، وبر السلوك ، وبر الأخلاق ، إنه سميع قريب .

